الجنَّة

هى قادمة من لندن منذ أيام بعد سياحة قصيرة ... ذهبت وعلى وجهها براءة وفى خطوتها حياء .. وعادت متنمرة متحفزة تتدلى من شفتيها سيجارة تنفث دخانها متواصلا كمدخنة ، وقد وضعت ساقًا على ساق وراحت تحملق فى وجهى فى صرامة وحدة .

كنت فى عجب من التغير السريع .

أين ذهبت الأنوثة الفياضة والملامح اللذيذة الهشة مثل غزل البنات التى كانت تتلون بحمرة الخجل لأقل خاطر ؟

أنا أمام شيخ غفر .

سألت فى توجس لعلى أكتشف السر :

– ترى كيف رأيت لندن !

جاء ردها كطلقات مدفع رشاش :

– رأيت الجنة .. إنهم هناك يعيشون فى الجنة .. حرية .. حرية .. حرية .. حرية فى كل شىء .. البنت هناك تفعل ما تشاء كما تخرج وقتما تريد تعود وقتما تريد .. أولا تعود . إذا حلا لها ألا تعود .. تعانق فتاها أمام الجميع ، وتقبله أمام الجميع ، وتختلى به ويختلى بها ، وتفعل به ويفعل بها كل ما يلذ لهما دون خوف من أن تتلصص عيون الآخرين لتعرف ماذا يجرى تحت الملاءة .. العسكرى يحرس المنظر الجميل من الفضوليين ويحمى الخلوة بقوة القانون .. الأهل يباركون هذه الحرية الجنسية ولا يدسون أنفهم فيها .

لا أحد يسأل .. هل هو زوجك .. هل هو خطيبك .. متى نقول مبروك .. كل واحد فى حاله .. كل واحد له لذته وخلوته وصاحبته .. هذه هى الحياة .. هذا هو التقدم هذه هى الجنة .

كنت أستمع فى دهشة .. وأذكر زيارتى أنا الآخر للندن وكيف أعجبت بها .. ولكن لسبب آخر مختلف تمامًا .. فقد أعجبنى فيها النظام والجدية والعمل والإنتاج وديمقراطية الرأى .. ولم ألق بالا لظاهرة الهيبيز والتحلل الجنسى .. فقد رأيت فيها فى ذلك الوقت مظهرًا لتداعى إمبراطورية عظيمة وعرضًا من أعراض تصدعها .. ولو أن شباب بريطانيا بدا بهذه الصورة الرخوة المنحلة لما قام لبريطانيا بناء تحت الشمس ، ولما استطاعت أن تقتحم بأساطيلها البحار السبعة .. إنها

قصة ميلاد وموت الإمبراطوريات كما تعلمناها من التاريخ .. تبدأ بالعصامية والفقر والتقشف والصبر والكفاح وتنتهى بالشيخوخة فى الترف والانحلال .. قصة لا يمل التاريخ من تكرارها على أسماعنا ..

وأفقت من ذكرياتى وتأملاتى على صوت صاحبتنا يصفعنى من جديد :

– هيه .. متى تتقدمون أيها الرجال .. وتخلعون عنكم ثياب الرجعية والتخلف وتعاملون المرأة كآدمية لها الحق فى أن تستمتع .. متى نعيش أحرارًا .

قلت وأنا مازلت مندهشًا من هذا التحفز فى نبراتها :

– ولكنك على ما أعلم حرة .. أنت حرّة .. فى إمكانك أن تفعلى ما تشائين .. ليس فى رفقتك شرطى وليس فى يدك أغلال .. ولست رهن تحقيق أو اعتقال .. وإذا قررت بينك وبين نفسك أن تفوزى بمتعة فأنت تحصلين عليها فى غفلة من الجميع وبرغم أنفهم .

فصاحت بحدة :

– ولماذا لا أستمتع علنًا أمام الكل ؟ لماذا لا تكون الأحضان والقبلات مثل التموين المشروع نتبادلها بلا خوف ؟ لماذا لا تكون الحرية الجنسية فى بطاقة تموينا ؟ مثل السكر والزيت والشاى حقًّا مقررًا لا نقاش فيه ولا عيب ولا حرام ؟

لبثت لحظة أمسك رأسى محملقًا فى هذه التى عرفتها عذراء مثل

فتافيت السكر .. كيف تتكلم الآن فى ضراوة مثل الغولة ؟

وأعجب ما فى الأمر .. أنها كانت تتكلم فى زهو وخيلاء .. وكأنما تحمل إلى العالم بشارة جديدة أو نظرية عميقة أو مذهبًا فلسفيًّا !

قلت لها :

– ولكن هذا مذهب القرود .. وهو أمر قديم جدًّا لا تقدم فيه ولا تقدمية .. فالقرود يتناكحون ويتلاقحون ويتعانقون فى الأقفاص ونحن نصفق لهم ونبارك حريتهم ونلقى إليهم بالموز والسودانى .. هذه نظرية لا يحتاج اكتشافها إلى رحلة إلى لندن وإنما تكفى رحلة إلى جبلاية القرود .. لقد كلفت نفسك مشوارًا طويلا بدون مقتضى .

قالت فى غيظ :

– سوف تعود إلى كلامك الفارغ .

والحق أنى كنت فى حيرة من كل هذا الغيظ .. ومن كل هذا الغل الذى جرى به الحوار .. فليس بيننا ثأر قديم على ما أعلم وإن كنت أدعو إلى العفة .. فإنى لا أفعل هذا لحسابى الخاص .. وإنما هى حقيقة وخبرة وممارسة ومعاناة وخلاصة عمر .. أحاول أن أوصل ثمرتها إلى الآخرين .. وأطرح أمامهم رأيًا حرًّا وليس فى المسألة تحد .

وجاءنى صوتها عنيدًا مكابرًا .

– على العموم إذا كنت أتفادى الصدام معكم إلى الآن .. وإذا كنت أخضع أحيانًا لتقاليدكم البالية أيها الرجال .. فإنما أفعل هذا

إشفاقًا عليكم لأنكم مساكين .. إشفاقًا على الأب والأخ والصديق « بتصعبوا عليه » .

أخيرًا .. قالت كلمة حق .. فنحن مساكين فعلا .. ومع مثل هذه العقلية النسائية سنكون جيلا مسكينًا من الرجال .. « نصعب ع الكافر » .

وليست جنة أبدًا تلك الخلوة التى تجمعنا مع مثل هذه العينة من النساء ولوكانت فى هايدبارك فى لندن تحت أشجار الزيزفون يفعل كل منا بالآخر ما يلذ له .

فهؤلاء لسن نساء .. وإنما غيلان ..

ونظرت إلى وجهها المتنمر ورحت أبحث عن فتافيت السكر التى كانت تمس شغاف القلب .. فوجدت وجهًا تبخرت منه الأنثى وبقى شىء متصلب لا يصلح لأن يكون وجهًا لأنثى ولا وجهًا لرجل .. ولا حتى سحنة لشيخ غفر ..